الفصل الثاني

المحسنات اللفظية

● **الجناس :**

لم يعرِّفه ابن أبي الإصبع بمعناه العام ، بل اهتم بتقسيمه ، ثم أخذ في تعريف كل فرع من فروعه عند التمثيل لها[١] ، وقد عرَّفه كثير من العلماء ، نذكر منهم ابن المعتز وقد عرَّفه بقوله : « هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شِعر وكلام »[٢] .

وقدامة بن جعفر : وقد عرَّفه بقوله : « أن تكون في الشِّعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة »[٣] .

وأبا هلال العسكري ، وقد عرَّفه بقوله : « أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها حسبما أَلَّف الأصمعي في كتاب الأجناس »[٤] .

وضياء الدين ابن الأثير ، وقد عرَّفه بقوله : « إن حقيقته أن يكون اللفظ واحدًا والمعنى مختلفًا »[٥] .

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

(٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ٩٦ وما بعدها .

(٤) الصناعتين لأبي هلال العسكرى .

(٥) المثل السائر لابن الأثير جـ ٣ .

وابن سنان الخفاجي ، وقد عرَّفه بقوله : « وهو أن يكون بعض الألفاظ مشتقًّا من بعض وإن كان معناهما واحدًا ، أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفًا ، أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعنى »[1] .

والخطيب القزويني ، وقد عرَّفه بقوله : « هو تشابههما في اللفظ »[2] ، وغير هؤلاء كثير كالرماني ، ولم يخل تعريف منها من النقد ، والأقرب إلى الصواب ما ذكره الخطيب مع اختصاره .

والأستاذ علي الجندي يفضل تعريف العلوي وهو : « اتفاق اللفظين في وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما »[3] .

ولست أدري ما الذي يحملنا على تفضيل هذا التعريف بعد ذكر تعريف الخطيب وهو أقرب من تعريف العلوي إذ يقال :« ما المراد بوجه من الوجوه ! وما أكثر الوجوه التي يشترك فيها اللفظان ولا يقال إنهما متجانسان كاشتراك لفظين في الإسمية أو الفعلية ... وهكذا .

وكل ما يؤخذ على الخطيب أنه أغفل اختلافهما في المعنى ، ولهم مع ذلك تقسيمات كثيرة للجناس ، لا أراها أنها تهمنا هنا بقدر ما يهمنا وروده في القرآن ، ووظيفته في جمال التعبير .

● من صور الجُناس في القرآن :

ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (الروم:٥٥) .

الساعة الأولى : القيامة ، والثانية : المراد بها اللحظة من الزمن ، وهذا يسمى عندهم الجُناس التام المماثل .

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ١٧٣ .
(٢) الإيضاح : ٣/٣٥١ .
(٣) الطراز للعلوي : ٣/٣٥١ .

وقد أثار ابن أبي الحديد جدلاً حول عد هذه الآية من الجناس[1] وذلك في تعقيبه على رأي ابن الأثير بجعلها من الجُناس ، ولكن الحق أن في الآية جُناسًا لاختلاف معنى اللفظين .

قال السيوطي : « قيل : ولم يقع منه ـ أي الجناس التام المتماثل ـ في القرآن سواه ـ أي هذه الآية المذكورة ـ واستنبط شيخ الإسلام ابن حجر موضعًا آخر هو قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (النور:٤٣،٤٤)[2] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء:٧٩،٨٠) فالجناس بين : يسقين ويشفين ، وهذا من الجناس المصحف ، وضابطه أن تختلف الحروف في النقط .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ (الصافات:٧٢،٧٣) .

والجناس بين مُنذِرين ومُنذَرين ، وهذا من الجناس المحرف ، وضابطه أن يقع الاختلاف في الحركات .

وقد اجتمع المحرف والمصحف في قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف:١٠٤) .

ومن الجناس قوله تعالى : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ (القيامة:٢٩،٣٠) .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (النحل:٦٩) .

والجُناس بين الساق والساق ، وكلي وكل ، وهذا من الجُناس الناقص وضابطه أن يكون الاختلاف في عدد الحروف .

---

(١) الفلك الدائر على المثل السائر ، ابن أبى الحديد ص ٣ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٩١/٢ .

ومنه المذيل ، وضابطه أن تكون الزيادة بأكثر من حرف كقوله تعالى : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ﴾ (طه:٩٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (القصص:٤٥) ، و﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٦٢)، و﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ ﴾ (العاديات:١١) .

ومنه المضارع، وضابطه أن يختلفا بحرف مقارب في المخرج كقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ (الأنعام:٢٦).

فإن اختلفا بحرف غير مقارب فهو اللاحق ، كقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ (الهمزة:١) .

ومنه المرفق : وهو ما تركب من كلمة وبعض كلمة كقوله تعالى : ﴿ جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ (التوبة:١٠٩) .

ومنه اللفظي : بأن يختلفا بحرف مناسب للآخر مناسبة لفظية كالضاد والظاء في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾

(القيامة:٢٢،٢٣) .

ومنه القلب : بأن يختلفا في ترتيب الحروف كقوله تعالى حكاية عن هارون عليه السلام : ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ (طه:٩٤) .

ومنه الاشتقاق : وهو أن يجتمعا في الأصل الاشتقاقي ويسمى المقتضب كقوله تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ (الواقعة:٨٩) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ (الروم:٤٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ (الأنعام:٧٩).

ومنه تجنيس الإطلاق : بأن يتفقا من حيث الظاهر مع اختلاف المادة المشتق منها . كقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ (الشعراء:١٦٨) .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ (المائدة:٣١) .

فأنت ترى أنهم عثروا في القرآن الكريم على أمثلة لكل فروع الجُناس وما شاكله .

وبقي من الجناس نوع سموه «مستوفى» وهو ما اختلف لفظا الجناس فيه بين الإسمية والفعلية ، ويقابله المماثل وهو ما اتحد طرفاه : إسمية أو فعلية .

وقد قسَّم ابن أبي الإصبع الجناس إلى قسمين كبيرين ، سمى أحدهما : جناس مزاوجة ، والثاني : جناس مناسبة[1] .. وفرَّع منهما عشرة فروع ، ما بين اللفظي والمعنوي .

أما جناس المزاوجة فقد مثَّل له بأمثلة المشاكلة : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ (الشورى: ٤٠) .

﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ (البقرة: ١٩٤).

وسبب هذه التسمية أن الله تعالى ـ كما قال هو ـ سمى جزاء السيئة سيئة ، وجزاء الاعتداء اعتداء ليكون في الكلام مزاوجة ، واشتراط المثلية في الاعتداء توخيًا للعدالة .

أما ما سماه جُناس المناسبة ، فقد مثَّل للفظي منه بأمثلة جناس الاشتقاق وهي قوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗا ﴾ (الأنعام: ٧٩).

وقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ ﴾[2] .

● **الجُناس يجامع فنونًا أخرى :**

رأينا أن أبي الإصبع قد مثَّل لما سماه جُناس المزاوجة بأمثلة هي بعينها أمثلة المشاكلة ، ومنه نستطيع القول بأن الجُناس في القرآن قد يجامع المشاكلة .

كذلك فإن جُناس الاشتقاق قد جامع فيه الطباق في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾ (المائدة: ٤٤) .

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٩ .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النور:١٩) .

وجامع الجُناس الترديد في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (الحشر:٢٠) .

والترديد هو إيراد الكلمة بعينها مرتين ، وبعضهم يخصها بالشعر ، ولكن العلوي وابن أبي الإصبع أجازا مجيء ذلك في النثر .

ومن أمثلته عند ابن أبي الإصبع قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام:١٢٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الروم:٦،٧) .

وقوله تعالى : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ﴾ (التوبة:١٠٨).

ومن العجيب أن الآية الثانية جمعت بين ثلاثة فنون من فنون البديع في موضع واحد باعتبارات مختلفة :

١- الطباق حيث وقع العلم منفيًا مرة ومثبتًا أخرى ، فهو من طباق السلب .

٢- الجُناس لتماثل اللفظين « يعلمون »، « يعلمون »: فهو من جناس الاشتقاق .

٣- الترديد حيث تكرر اللفظان وكل منهما متعلق بمعنى مختلف .

وقد يجامع الجُناس التعطف ، الذي هو إعادة اللفظة بعينها غير مشروط اجتماعهما ومثاله قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ (التوبة:٥٢) .

فقد أعيدت الكلمة هنا أربع مرات : « تربصون بنا »، « ونحن نتربص بكم » ، « فتربصوا » ، « إنَّا معكم متربصون » . ولا شك أن بين هذه المواضع الأربعة جناس اشتقاق .

ويجامع الجناس التصدير ، ومن أمثلة ذلك في الكتاب الحكيم قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الأنبياء: ٤١) .

● **وظيفة الجناس :**

للجناس وظيفتان ، إحداهما من حيث المعنى ، والأخرى من حيث اللفظ ..

أما التي من حيث المعنى فيقول عنها الإمام عبد القاهر في الأسرار : « وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسًا مقبولاً ، ولا سجعًا حسنًا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى لا تبغي به بدلاً ، ولا تجد عنه حولاً ، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه ، وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه .. وذلك كما يُمثِّلون به أبدًا من قول الشافعي رحمه الله ـ وقد سئل عن النبيذ ـ فقال : « قد أجمع أهل الحرمين على تحريمه »[1] .

ويقول : « واعلم أن النكتة التي ذكرتها في التجنيس ، وجعلتها العِلَّة في استيجابه الفضيلة ، هي : حُسن الإفادة مع أن الصورة صورة الإعادة »[2] .

ومعنى هذا أن الكلمة المكررة في التجنيس مع أن الصورة توهم السامع في أول أمرها أنها لم تأت بجديد ، بل هي مكررة لمعنى سابقتها ، فإذا حصل للسامع منها المعنى الجديد جاءه ذلك من غير مظانه ومن حيث لم يتوقعه ، وفي ذلك متعة للنفس ، وربح من غير انتظار .

وقال العلوي : « هو عظيم الموقع في البلاغة ، جليل القدر في الفصاحة »[3] .

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١١ .

(٣) الطراز للعلوي : ٣٥١/٣ .

ويقول ابن السبكي : « وكفى التجنيس فخراً قوله عليه الصلاة والسلام : « غِفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله ، وعصية عصت الله » .. ويرى بعضهم أنه أشرف الأنواع اللفظية »[1] .

وأما وظيفته من حيث اللفظ فإنه يحمل السامع على الإصغاء ، كما يقول صاحب كنز البلاغة (عماد الدين إسماعيل بن الأثير الحلبي من علماء القرن الثامن الهجري) : « لم أر مَن ذكر فائدة الجُناس وخطر لي أنها الميل إلى الإصغاء إليه ، فإن مناسبة الألفاظ تُحدث ميلاً وإصغاءً إليه ، ولأن اللفظ المشترك إذا حُمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوق إليه »[2] .

وفي هذا النص بيان للوظيفة اللفظية ، وإشارة إلى الوظيفة المعنوية .

● **مقومات الجمال في الجُناس :**

وإذا أمعنا النظر في جمال الجُناس حين يقع جميلاً أمكن أن نرجعه إلى ثلاثة أسباب :

١- تناسب الألفاظ في الصورة كلها أو بعضها ، ومما لا شك فيه أن التوافق في الصورة واقتران الأشباه والنظائر بعضها ببعض تميل إليه النفوس بالفطرة ، وتأنس به وتغتبط ويطمئن إليه الذوق لأنه نظام وانسجام وائتلاف ، ويخلع على النفوس راحة وبشاشة ، وهدوءاً وقراراً .

٢- التجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلاً تامًّا أو ناقصًا فيطرب الأذن ، ويهز أوتار القلوب .

٣- ذلك هو العمل الأخّاذ الذي يسلكه « المجنس » لاختلاف الأذهان واستمالة الأفهام[3] .

---

(١) شرح عقود الجمان ص ١٤٩ .

(٢) شرح السبكي على التلخيص : ٤/٤١٢ .

(٣) فن الإسجاع دكتور علي الجندي ـ ص ٢ (بتصرف في الصياغة) .

وفي هذا يقول عبد القاهر : « .. وقد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها .. ويوهمك كأنه لم يزدك شيئًا وقد أحسن الزيادة ووفاها »[1] .

ولهذا فإن الجُناس من مقتضيات الأحوال ، وموجبات البلاغة وشرط ذلك أن لا يكون الجُناس متكلفًا[2] .

● **منزلة جُناس القرآن :**

وقد جاء الجناس في القرآن الكريم على أحسن صورة وأجمل موقع لا تكلف فيه ، ولا تصنع ، ولا جور على المعنى لحساب اللفظ .. ولا اقتسار للفظ بدون دلالة حسنة .

سواء في ذلك التام منه أو الناقص ، وسواء ما كان جُناسًا خالصًا ، أو اختلط بغيره من ألوان البديع ، فليس فيه موضع نازل في معناه ، أو مستكره في لفظه بل هو ـ كله ـ جار مع طبيعة الأسلوب القرآني في قوته وجزالته وبلاغته وفصاحته .

وإن شئتَ فتأمل هذه المواضع مع ما سبق من نصوص ورد فيها الجُناس في القرآن الكريم : ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ (التوبة:١٢٧) .

﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (النور:٣٧) .

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ (البقرة:٢٧٦) .

فإنك تجد فوق روعة المعنى وسحر الجرس ، مناسبة بين ركني الجُناس جد رائعة ، وهذه المناسبة لو لم يكن للجُناس وظيفة سواها لكانت كفيلة بأصالته وحسنه : « انصرفوا ـ صرف » ـ « تنقلب ـ القلوب » ـ « الربا ـ يربي » وهكذا في كل جناس أنت واجد خلابة وسحرًا ، وأسرًا للسمع والفكر معًا .

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني : ٥ .

(٢) انظر الصبغ البديعي ـ الدكتور أحمد إبراهيم موسى ص ٤٩٥ .

وهل أنت واجد في هذه إلا جمالاً وحسنًا ، والآن فانظر إلى سجع الناس المتكلف لترى الأصالة هنا ـ أي في القرآن ـ والزيف فيما عداه ، إلا مَن عصم الله .

٢- ائتلاف اللفظ مع المعنى :

عرَّفه ابن أبي الإصبع فقال : أن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضًا ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها ، غير لائقة بمكانها ، كلها موصوف بحسن الجوار ، بحيث إذا كان المعنى غريبًا فجًّا كانت ألفاظه غريبة محضة ، وإذا كان المعنى مولَّدًا كانت الألفاظ مولَّدة ، وإذا كان المعنى متوسطًا كانت الألفاظ كذلك ، وإذا كان متداولاً كانت الألفاظ معروفة مستعملة[1] .

● ائتلاف اللفظ مع المعنى سمة للقرآن كله :

هذا ملخص ما ذكره المؤلف .. ونحن إذا نظرنا إلى عنوان الباب كان القرآن كله مثالاً له ، لأن الألفاظ في القرآن مؤتلفة مع معانيها لم يند منها موضع واحد ، وعلى هذا فإن إيراد الأمثلة فيه شيء من التسامح ، هذا بالنظر إلى عنوان الباب كما قلنا .

أما بالنسبة للأحوال التي ذكرها كشرح وتعريف للباب ، فإن التمثيل واجب لبيان الأقسام الواردة في التعريف ، ولم يختص ابن أبي الإصبع بالكلام عن هذا الأصل بل تحدث عنه كثيرون من العلماء كابن سنان وابن الأثير والعلوي .

وقد مثَّل ابن أبي الإصبع له بقوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ (يوسف:٨٥) .

وقد وجَّه النص بما ملخصه :

فإنه سبحانه لما أتى بأغرب ألفاظ القَسَم وهي التاء ـ إذ الواو والباء أعرف منها عند العامة وهما أكثر دورانًا على الألسنة ـ لما أتى بها أتى بأغرب صيغ

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٧٧ .

الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار ، لأن «كان» وبقية أخواتها أعرف عند الكافة من «تفتأ» وأكثر منها استعمالاً .. وكذلك «حرضًا» فإنها أغرب الألفاظ الدالة على الهلاك ، فاقتضى حسن النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال ، توخيًا لحسن الجوار ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ ، ولتتلاءم الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم ويتضح هذا إذا ما قورن بمثله ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ (النور:٥٣) .. فلما كان هذا الموضع كل ما فيه من ألفاظ معروفًا مستعملاً قال : «أقسموا» ، و«بالله» فلم تأت لفظة غريبة تفتقر إلى ما يشاكلها في الغرابة ويلائمها .

ومن أمثلته أيضًا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (هود:١١٣) . لأن الركون إلى الظالم دون فعل الظالم نفسه ، ولذلك وجب أن يكون العقاب عليه دون عقاب الظالم ، ولهذا قال سبحانه : «فتمسكم النار» ، فالركون إلى الظالم يناسبه مس النار للراكن ، فلم يقل : «فقد دخلوا النار» ـ مثلاً ـ لأن المتبادر إلى الفهم أن مس النار أول ملاقاة الجسم لها .

● **المس والذوق :**

هذا وقد جاء «المس» في غير هذا الموضع مرادًا به العذاب المؤلم ولا يكون إلا بالدخول في النار والمكث فيها ، كقوله تعالى : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (القمر:٤٨) .

فالمعوَّل ـ إذن ـ على القرائن كما يقول ابن أبي الإصبع نفسه : «وإذا احتملت اللفظة احتمالات صرف منها إلى ما تدل عليه القرائن»[١] .

وحتى في هذه الآية ـ ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ ـ قد يبلغ ائتلاف اللفظ مع المعنى ومع اللفظ منتهاه ، فإذا كان المس أول ملاقاة الجسم للنار ، فإن الإذاقة

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٧٨ .

هي أول ملاقاة المطعوم للسان ـ إذن ـ فههنا مقابلة آسرة .. ولعل السر البلاغي في هذا التعبير أن إذاقة مس سقر كاف في الإيلام فما بالك بدخولها ؟

وبهذا تنتهي أمثلة ابن أبي الإصبع لهذا الباب من القرآن الكريم ، والقرآن ـ بعد ـ مشحون بهذه الصور الآسرة ، فلنورد بعضها فيما يأتي :

● **ذل اليهود ومسكنتهم :**

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ (البقرة:٦١).

هذا إخبار من الله تعالى عن اليهود لما عصوا الله وكفروا به ، وقتلوا الأنبياء ظلمًا وعدوانًا ، وخلاصة هذا الإخبار أن اليهود أذلاء وضعفاء أينما كانوا وحيثما حلوا ، جزاء لهم على جرائمهم المنكرة ، فلازمتهم الذلة والمهانة ، وجاء التعبير وافيًا بالغرض أيما وفاء .

يقول الزمخشري : « جُعِلَت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم فهم فيها كما يكون في القبة مَنْ ضُرِبت عليه ، أو أُلصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب كما يُضرب الطين على الحائط فيلزمه »[1] .

ويُفهم من هذا معنيان : الإحاطة ، واللزوم ، وفي التعبير معنيان آخران ذلك أن الضرب في نفسه مشعر بذل المضروب فاختير هنا ليناسب لفظة « الذل » المجعولة عليهم .

والضرب من شأنه إيلام المضروب وإيجاعه ، وهذا يُشعر بالأثر السيئ الذي يجده اليهود من ملازمة الذلة والمسكنة لهم ، وإحاطتهما بهم .

وهذا الضرب مجاز طريقه الاستعارة التمثيلية أو المكنية ، ويجوز حمله على الاستعارة التصريحية التبعية .

وهذا من باب مناسبة اللفظ للمعنى ، وفي قوله تعالى بعد هذا مباشرة : ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٦١) مناسبة كذلك ، فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم يناسبه : ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١٠٩/١ .

● غرابة اللفظ لغرابة المعنى :

ويدخل في هذا الباب من غرابة الألفاظ لغرابة المعاني قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (المدثر: ٥٠، ٥١).

وقوله تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (الصافات: ٦٥) .

وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ (النجم: ٢٢) .

فـ «القسورة» الصياد أو الأسد ، وهما أكثر من لفظ : «قسورة» دورانًا على الألسن وورودًا في الاستعمال ، وهذا مناسب لغرابة نفور العصاة عن الدعوة إلى الطاعة والهدى .

و«رءوس الشياطين» لم يستعمله أحد لأنه لم يقف على حقيقته فجاء مثالاً لثمار أغرب شجرة تنبت في أصل الجحيم .

وقسمة الإناث لله سبحانه والذكور للكافرين قسمة غريبة فدل عليها بأغرب لفظة عرفتها لغة العرب .

وهذا ميدان واسع في القرآن الكريم يظهر في حقيقته ومجازه ، وما أردنا بما ذكرنا إلا التدليل والتمثيل .

٣- المساواة[١] :

عرَّفها ابن أبي الإصبع بقوله : «أن يكون اللفظ مساويًا للمعاني لا يزيد عليه ولا ينقص عنه»[٢] .

ثم يعلق عليها فيقول : «وهو من أعظم أبواب البلاغة ، بل هو بعينه نفس البلاغة»[٣] .

---

(١) تابعنا ابن أبي الإصبع الذي تابع قدامة بن جعفر في تفريع هذه الأنواع التي يعدها من ائتلاف اللفظ مع المعنى .

(٢،٣) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٧٩ .

ومعروف أن المساواة من مباحث علم المعاني ـ وهذا هو شأن البديع ـ إنما هو في معظم أبوابه مسائل منتزعة من علمي المعاني والبيان ، وللعلماء مذهبان في أسلوب القرآن .

فالجمهور يرى أن القرآن فيه الإطناب والمساواة والإيجاز .. وعرَّفوا الأول بأن الألفاظ فيه تزيد على المعنى زيادة تؤدي فائدة ، والمساواة قد سبق تعريفها .

أما الإيجاز .. فأن تكون الألفاظ أقل من المعنى المفهوم منها ، وقسَّموا الإيجاز إلى إيجاز حذف ، وإيجاز قصر .

وقد مثَّلوا للمساواة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠) .

قال ابن أبي الإصبع في بيان المقصود من هذه الآية : « إن الله سبحانه أراد أن يأمر بجميع المحاسن الممدوحات المنجيات ، وينهي عن جميع القبائح الموبقات المذمومات ، فأخرج المعنى في لفظ هو طبقه ، وقالب هو قدره وصورة مساوية لمعناه لا تزيد ولا تنقص عن فحواه ، ومصداق ذلك أن أي لفظة لو حذفتها من ألفاظ الآية اختل شيء من المعنى بحذفها اختلالاً ظاهرًا...

وكذا إذا زيد في ألفاظها لفظة حصل من الاختلاف بالزيادة ما حصل منها عند النقص ، ولا معنى للمساواة غير هذا[1] .

● **نقد وتحليل :**

ولكن الحق أن الآية ليست من قبيل المساواة ، بل هي شاهد ناطق على الإيجاز وهذا نلمحه من ناحيتين :

من حيث الصناعة النحوية فإن فيها حذفًا في مواضع لا أظن أن المؤلف

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٨٠ .

يخالفنا فيها ، وتلك المواضع هي : حذف معمول « يأمر » ـ حذف معمول المصدر « إيتاء » ـ حذف معمول « ينهي » ـ حذف معمول « تذكرون » .

هذه الحذوفات وإن كانت كثيرة في الأسلوب القرآني ، فإنها تنقل الآية من شاهد المساواة إلى شاهد الإيجاز بالحذف .

ومن ناحية دلالة الكلمات أنفسها .. فإن « العدل » تحته أفراد ، وكذلك « الإحسان » و« الفحشاء » تحتهما أفراد ، وكذلك « المنكر » و« البغي » ، فهذه أسماء جوامع دالة على كثير وهذا ينقل الآية من شاهد المساواة إلى شاهد الإيجاز بالقصر .

● **ابن أبي الإصبع يناقض نفسه :**

وكلام ابن أبي الإصبع نفسه دليل على أن الآية فيها إيجاز قصر حيث يقول : « إن الله سبحانه أراد أن يأمر بجميع المحاسن المنجيات الممدوحات ، وينهي عن جميع الموبقات المذمومات » . فكيف يستقيم بعد أن يقال إن الآية من قبيل المساواة ؟

ومن شواهد المساواة أيضًا ـ حسبما ذكروه ـ قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود: ٤٤) .

وهذه الآية كأختها شاهد إيجاز وليست شاهد مساواة .

وإني لأعجب لابن أبي الإصبع إذ أورد هذه الآية في باب المساواة وهو نفسه يعلِّق عليها تعليقًا واضحًا بأنها من باب الإيجاز ، فهو يقول : « فإنه سبحانه وتعالى أراد اقتصاص هذه القصة بأوجز لفظ وأبلغه فجاء بها كما ترى مرتبة الألفاظ والجُمل حسبما وقع » .

فمن هذا النص تعلم أن ابن أبي الإصبع قد سلك الآية في موضعها اللائق بها من البلاغة والإيجاز وحسن النسق .

وبعدها مباشرة يقول : « فإن قيل لفظة : « القوم » زائدة تمنع الآية من أن توصف بالمساواة لأنها إذا طرحت استقل الكلام بدونها بحيث يقال : « وقيل بعدًا للظالمين » . قلت : لا يستغنى الكلام عنها » .

ثم أخذ في بيان أصالة لفظة « القوم » في موضعها هنا فوُفِّقَ أيما توفيق[1].

والذي نأخذه عليه اضطرابه في نسبة الآية إلى المساواة مرة ، والإيجاز مرة أخرى ، وكونها من الإيجاز أمر لا يحتاج إلى دليل .

ثم أخذ يبرر هذا الخلط والاضطراب فقال : « واعلم أن البلاغة قسمان ـ كما قيل ـ البلاغة إيجاز من غير اختلال وإطناب من غير إملال ، والمساواة معتبرة في القسمين معًا » .

● **والسؤال الآن :**

كيف تكون المساواة معتبرة من قسمي الإيجاز والإطناب .. وعلى أي أساس يمكن فهم هذا التقسيم وبين الأقسام الثلاثة حواجز وضوابط لا تسمح بالتداخل بينها ؟ إن في ما يقول ابن أبي الإصبع خروجًا عن إجماع العلماء .

ثم تورط أكثر وأكثر عندما راح يطبق فكرته الغريبة هذه على نصوص القرآن ، وهذا يظهر مما يأتي :

قال : « فما جاء من قسم الإيجاز وهو موصوف بالمساواة ! قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة:١٧٩) ، فإن معنى هذه الجملة جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ (الإسراء:٣٣) .

ثم قال : « لكن الأول إيجاز والثاني إطناب .. وكلاهما موصوف بالمساواة »[2].

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٨٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٨١ .

وفضلاً عن هذا الخلط والاضطراب فإننا نرى في كلامه ضعفًا حيث يرى أن معنى الآية الثانية متفق مع معنى الآية الأولى ـ وظاهر أن معنى الآية الأولى بيان أن «القصاص من القاتل» يضعف رغبة الناس في الاعتداء بالقتل، فتحفظ الحياة بصون الدماء .

ومعنى الآية الثانية هو تشريع يبيح لولي المقتول المطالبة بالاقتصاص من القاتل مع الاقتصار في الدعوى على المجرم الحقيقي لا يتعداه إلى سواه .

فهل بعد هذا يقال : إن معنى الآية الأولى جاء في الآية الثانية ؟ وعلى أي أساس أيضًا يدَّعي الاتحاد بين معنى الآيتين ؟!

٤- الإرداف :

وهو مفرَّع كذلك عن ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وعرَّفوه فقالوا : أن يريد المتكلم معنى فلا يُعبِّر عنه بلفظه الموضوع له ، ولا بلفظ الإشارة الدال على المعاني الكثيرة ، بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص وتابعه قريب من لفظ المعنى الخاص قرب الردف من الرديف[1] .

ومنه في الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ (هود:٤٤)، وحقيقة ذلك : وهلك مَن قضى الله بهلاكه ، ونجا مَن قضى بنجاته .

وإنما عدل عن هذه الحقيقة إلى لفظ الإرداف لما فيه من الإيجاز والتنبيه على أن هلاك الهالك ونجاة الناجي كان بأمر آمر مطاع ، وقضاء مَن لا يُرد قضاؤه ، والأمر يستلزم آمرًا وقضاؤه يدل على قُدرة الآمر به ، وطاعة المأمور تدل على قدرة الآمر وقهره وأن الخوف من عقابه ورجاء ثوابه يحضان على طاعة الآمر ولا يحصل ذلك كله من اللفظ الخاص»[2] .

ومن أمثلته أيضًا قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ (الحاقة:٤٤-٤٦).

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٨٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٣ .

قال : « فإن هذا الكلام عُدِلَ فيه عن المعنى الخاص في موضعين توخيًا للمناسبة والتسجيع لأن المعنى الخاص في الموضعين أن يقال : لأخذناه أخذًا شديدًا وأهلكناه ، لكن هذه العبارة خالية من المناسبة لما تقدَّم هذين الموضعين وما تأخَّر عنهما ، ولما كانت المناسبة والتسجيع أمرًا مطلوبًا عدل عن اللفظ الخاص الذي لا يعطي ذلك إلى لفظ يعطيه مع جزالة فيه »[1] .

وأقول : إن المواضع التي ذكرها شواهد للإرداف لا تخرج عن الاعتبارات الآتية :

١- إيجاز القصر .. وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ وقد جرى هذا التعبير مجرى الحكمة لإجازة لفظه ووفرة معناه .

٢- الكناية عن الصفة .. وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ (الصافات:٤٨ ، وسورة ص : ٥٢ ، الرحمن : ٥٦) ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ (الحاقة:٤٦) لأن الأولى كناية عن العفة ، والثانية كناية عن الهلاك .

والوتين : نياط القلب إذا قُطِعَ مات صاحبه[2] .

٣- الاستعارة التمثيلية .. وذلك في قوله تعالى : ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ شبَّه حاله ـ سبحانه ـ في سيطرته عليه بحال مَن يمسك يمينه فلا يستطيع دفعًا ولا فوتًا .

٦- التمثيل :

وهذا مفرَّع كذلك عن ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وقد عرَّفه ابن أبي الإصبع فقال : « هو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبِّر عنه بلفظه الخاص ولا بلفظي الإشارة ولا الإرداف بل بلفظ هو أبعد من لفظ الإرداف قليلاً ... »[3] .

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٨٤ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤٨٦/٤ .

(٣) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٨٥ .

ومنه : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ (هود:٤٤) فإن حقيقة ذلك : وجلست على هذا المكان ، فعدل عما فيه زيغ إلى ما لا زيغ فيه ولا ميل ولا حركة ولا اضطراب ، فإن بهذا الجلوس تسكن قلوب أهل السفينة فحصل تمام الأمن وتمام السكينة ، ولا يحصل هذا من قولنا : « جلست» ، فلذلك عدل عن لفظ الحقيقة إلى لفظ التمثيل .. هذا معنى من معاني التمثيل وخلاصته : إيثار لفظ مكان آخر ، ليس أحدهما مجازًا .

● **معان أخرى للتمثيل :**

ومعنى آخر مثَّلوا له بقوله تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة:٧).

فإن ألفاظ هذه الآية ومعناها تمثيل مجازي أتى به لتتبين به حقيقة أمر مراد ، لأنه لما كان هؤلاء المحدَّث عنهم بذلك لا ينتفعون بما يسمعون من الزواجر ، ولا يرتدعون بما يشاهدون من الآيات .. كان امتناعهم عن ذلك بختم وغشاوة حالا بينهم وبين ما يسمعون وما يبصرون وما يعتقدون ، إذ لولا هذه الحيلولة لسمعوا وأبصروا وعقلوا .

وفي هذا فإن التمثيل يكون بإيثار لفظ مجازي على آخر حقيقي كـ« الختم» ومعنى ثالث للتمثيل عندهم ، وهو حمله على الاستعارة التمثيلية التي تشبه بها الهيئات .. وقد نَصَّ على ذلك كثير منهم كابن أبي الإصبع إذ يقول في توجيه الآية المذكورة : « ويجوز أن تُضرب الجملة مثلاً لصفة أحوالهم كقولهم : سال بهم الوادي ـ إذا هلكوا ، وطارت بفلان العنقاء ـ إذا طالت غيبته »[1] .

ومعنى رابع للتمثيل عندهم هو أن يراد به المثل ، وهذا كثير في القرآن الكريم .. منه قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ (النجم:٥٨) .

* * *

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٨٦ .